العامل الديني وتأثيره على القدرات القتالية لمجاهدي ثورة أول نوفمبر 1954

د. بن داهة عدة*

مقدمة: موضوع هذه المقالة له علاقة بالعقيدة الدينية الإسلامية، وإن كان ليس من قبيل اختصاصي ولا يدخل أيضا في دائرة اهتمامي كدارس للتاريخ.

يبقى الغرض من هذا العرض الوجيز هو إبراز دور الدين الإسلامي كأحد أهم العناصر الأساسية الدافعة للثورة التحريرية الجزائرية، وذلك بالكشف قدر ما أمكن عن أسلوب الثوار الجزائريين في اعتماد الدين وسيلة لتحقيق مكاسب استراتيجية، والنيل من الاستعمار الفرنسي.

والموضوع يحتوي- في مجمله- معلومات تؤكد على أن الدين الإسلامي باعتباره أحد أهم مقومات الشخصية الجزائرية والهوية الوطنية، قد لعب دورا حاسما وفعالا في بث الروح القتالية- الثورية- في نفوس المكافحين الجزائريين، وغذّى فيهم شُعلة الإيمان بحقهم في الحرية والاستقلال، كما يتضمن بعض الصور والنماذج من سلوكات الثوار الجزائريين التي تجسد البعد الروحي للثورة الجزائرية بعرض أمثلة عن بعض أقوالهم وأفعالهم وعلاقاتهم... ويكشف عن دواعي وأسباب استغلال قادة الثورة للعامل الديني بالتحريض على القتال، أي أنه يوقفنا على مناهج الثوار الجزائريين في الدعاية والدعوة إلى الجهاد- انطلاقا من النصوص القرآنية- وما ترتب عن هذه الدعوة من وجوب ممارسة العنف الثوري "بالحقد الشديد على الاستعمار الفرنسي وإدارته وجيشه وشرطته والخونة المساعدين له"[1]، لأخلص في الأخير إلى أن الثورة الجزائرية كانت لها مرجعية إيديولوجية دينية، مع إشارة ضمنية إلى أن كل مسلم على وجه الأرض إلا ويحمل في نفسه نواة ثورية ناضجة وقابلة للانفجار في أية لحظة.

شعار الجهاد: بنى المناضلون الأوائل الذين فجروا الثورة[2] في أول نوفمبر 1954 قواعد فلسفتهم الثورية على المبادئ الأصيلة للشعب الجزائري، والمستمدة أساسا من تعاليم الدين الإسلامي، ومن التاريخ الوطني الجزائري؛ وفكروا مبكرا في توفير شروط النجاح التي تضمن لهم النصر الأكيد،

*- أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة معسكر.

وهم يدركون جيدا أن عبارة جهاد ستضفي من دون شك طابع الشرعية الثورية[3] والصبغة القانونية على ممارسة أعمالهم.

بعبارة أخرى ارتكز الثوار الجزائريين على أفكار يتقبلها الشعب الجزائري ويتحمس لها، ويمكنهم من خلالها تعبئة طاقاته وتوجيهها.

وتحقيقا لهدف الاستقلال قرروا منذ البداية الاعتماد على جميع الوسائل العسكرية والسياسية والدبلوماسية والإعلامية والنفسية. (البندقية لم تكن وحدها هي سلاح الثوار الجزائريين)، ومن ذلك استخدام الإسلام، وهذا لجملة من الاعتبارات منها:

– إن الإسلام عنصر من عناصر الشخصية الجزائرية، أي ركيزة ومقوم أساسي للمجتمع الجزائري.

– إن الإسلام عامل توحيد (إذا كانت العادات والتقاليد، واللغة، والعقائد السياسية قد فرقت الشعب الجزائري فإن الإسلام قد جمع شمله)؛ فلا أحد من الجزائريين يولّي وجهه لغير القبلة، ولا أحد يعبد إلها غير الله.

وبطبيعة الحال فإن الإسلام هو الذي منح الثورة الجزائرية وأمدّ الثوار الجزائريين بأقوى سلاح تفتقر إليه وحدات جيش الاحتلال الفرنسي، وهو الروح المعنوية العالية والصبر للشدائد والقدرة على تحمل الأذى «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَّثَلُ الَّذِيْنَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالْضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ، مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ»[4] «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذينَ جَاهَدُوا مِنْكُم وَيَعْلَمَ الصَّابِرين»[5].

أي لن تدخلوا الجنة بمجرد الإيمان بالله وتصديق رسوله دون أن ينالكم أذى الكفار، ومن احتمال الفقر والفاقة ومكابدة الضرّ والبؤس في المعيشة، ومقاساة الأهوال في مجاهدة العدو، كما كان من قبلكم من المؤمنين[6].

وقد يتساءل المرء وهو يقرأ نداء أول نوفمبر 1954 عن تكرار عبارة كفاح في النص النوفمبري عشر مرات بدل عبارة جهاد[7]، كما أنه قد يستغرب لعدم ورود عبارتي الشهادة والشهيد مع ما لهذه الكلمات من وقع شديد في نفوس الجزائريين وتأثير حاد في سلوكهم؛ ومما يزيد من حيرة القارئ غياب البسملة في بداية نص نداء أول نوفمبر 1954م.

ومع ذلك لا نشك أبدا ومطلقا في صحّة عقيدة مفجري ثورة أول نوفمبر 1954م، ومحرري النداء، وفي وفائهم وإخلاصهم للإسلام.

ولا أحد من المؤرخين يمكنه أن يُنكر الدور الذي لعبه الدين الإسلامي في كل الثورات التي خاضها الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي فيما بين 1830–1916 (160 ثورة وانتفاضة)، لأنها اندلعت جميعها تحت راية الجهاد في سبيل الله والوطن، وعليه صنفت فرنسا كل دعاية أو نشاط مقرون بالدين الإسلامي بل بعبارة «إسلام» – يقوم به الجزائريون– أمرا في منتهى الخطورة لاعتبارها عبارة إسلام أو كلمة جهاد تحرك مشاعر الشعب الجزائري المسلم وتثير عداءه ضدها.

إن الأمير عبد القادر كان أول من حاول أن يجند الشعب الجزائري ضد الغزاة الفرنسيين بتركيزه على مبادئ أساسية متأصلة في نفسية الشعب. فقد حَثّ الجزائريين على التصدي للأجانب الذين يدنسون الإسلام والأرض والحرية والشرف وقال لهم: "إنكم الآن تحت رومي، يقاضيكم رومي، ويدبر شؤونكم رومي... إن الرومي قد انتهك مساجدكم وأخذ أحسن أراضيكم واشترى أعراض نسائكم»[8]، ومن هنا يمكن اعتبار أن العاطفة الدينية قد قامت في بداية الأمر بدور هام، غير أنها لم تكن هي وحدها التي دفعت الشعب إلى الكفاح[9].

وبهذا الشكل فإن محرري نداء أول نوفمبر، والذين اشتركوا في تحديد أفكارْه يكونوا قد تنبَّهوا لحساسية الجزائريين تجاه الدين الإسلامي، فوضعوه من أجل تحرير الوطن الذي تضاهى قُدسِيَّتُهُ قدسية الدين[10].

لقد خطط ورثة المنظمة السرية لجبهة تحرير وطنية لا مجال فيها للحزبية أو الوطنية الخاصة والضيقة، ولكن لوطنية متجذرة تتماشى مع روح المجتمع كله[11].

إن شعار الجهاد ذو الجاذبية الساحرة الذي حمله الجزائريون في كل مراحل نضالهم ضد الاستعمار الفرنسي، قد غذى المواطنين الجزائريين بشعلة قتالية لم تنطفئ إلا باستعادة الجزائر استقلالها وحريتها.

وللتذكير فقط فإن الاستعانة بالعنصر العاطفي الديني لجمع الشمل أو مقابلة العدو، استغلت على حد سواء عند المسيحيين والمسلمين لتحقيق أغراض سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وظهر ذلك في الفتوحات الإسلامية، وفي الحملة الاستعمارية الأوروبية على البلاد الإسلامية، وفي غزو فرنسا للجزائر، وهذا طبعا لم يخف على المنظرين للثورة.

أثر كلمة "الجهاد" في الأخلاقيات القتالية للثوار الجزائريين: إن الكلام عن الثورة التحريرية الجزائرية يسوقنا حتما إلى الحديث عن الجهاد الذي تبناه الثوار الجزائريون وسيلة مشروعة لقتال العدو

الفرنسي والمتعاملين معه، كخطة استراتيجية وكحتمية تستجيب لطبيعة المرحلة التاريخية وظروفها، وصيغة مُثلى لجمع قوى الشعب وتحقيق وحدته السياسية.

إن الذين أطلقوا تعبير جهاد على قتالهم لعدوهم، وسموا أنفسهم مجاهدين[12]، والجريدة الناطقة باسمهم المجاهد كانوا يدركون تمام الإدراك ما لهذه الكلمة من وقع ومن أثر في النفوس.

وعليه روَّجوا لفكرة الجهاد حتى تتوحد كلمتهم، فيقفوا كرجل واحد أمام عدوهم.

وبعبارة أخرى فإن دعوتهم ودعايتهم للجهاد كانت هي وسيلتهم لحمل الشعب الجزائري على الثورة ضد الاستعمار الفرنسي؛ فلم يجهدوا أنفهم في إقناع الشعب الجزائري المسلم بمشروعية الجهاد، فالشعب الجزائري شعب مسلم يعرف أن الجهاد أمر شرعه الله تعالى وفرضه على المسلمين لخيرهم وسعادتهم وإعزازهم، وأن الجهاد حرب مقدسة شريفة.

وهكذا أصبح الجهاد أحد أهم الأسس التي بني عليها قادة الثورة الجزائرية قواعد حربهم للعدو لا سيما بعد مؤتمر الصومام (1956/08/20).

وعليه لم يبالي المجاهدون في سبيل مبدئهم بما وقع بهم من قتل وتعذيب وتنكيل، فاحتقروا الذل والهوان، وطلبوا العزة في الشهادة؛ فحملوا شعار النصر أو الاستشهاد، ومن الأمثلة عن أثر ترغيب الثورة للمجاهدين على طلب الشهادة أن أحد المجاهدين من أبناء مدينة معسكر يدعى حبوش عبد القادر المعروف بـــ "زعطوط" كان يكشف عن صدره ويطلق الرصاص على عدوه واقفا لا منحنيا أو منبطحا ويقول لأصحابه: "مَا هُوْشْ رَجُلْ اللِيْ مَا يَلْقَاشْ الرَصَاصْ بِصَدْرُهْ"، وهناك مثال آخر لأحد أبناء هذه المدينة من المحكوم عليهم بالإعدام، وهو المدعو بوبرقيق سعيد، الذي حاك الراية الجزائرية على قطعة قماش وهو بداخل السجن وكتب عليها "موت الشرف ولا حياة الذل".

ومثل هذه الشهادة رد قاطع على الذين يتهمون الثوار الجزائريين بأنهم لم يكونوا مجاهدين حقا– على الأقل خلال حرب التحرير–.

كانت عبارة الجهاد في سبيل الله والوطن وسيلة الثوار الجزائريين الأقوى لاستثارة الحماسة، والتحريض على القتال، وبث قدرة الصمود في النفوس، لأن المجاهد المتوكل على الله لا يُثنيه عن تحقيقه لهدفه أي عارض مهما كان خطيرا، ولم يثن من عزيمته أي عامل من عوامل الفشل والتثبيط مهما كان مصدره وكيفما كان نوعه[13]، ووعد قادة الثورة التحريرية المقاتلين بجنات الخلد إذا نالوا الشهادة، وأرهبوهم بنار جهنم، إذا تخاذلوا[14]؛ وهكذا أصبحت كلمة جهاد عنوانا للثورة الجزائرية، وعنوانا لاستراتيجيتها كما أنه باسم الجهاد استعادت الجزائر إستقلالها.

وذهب الحد ببعض الكتاب إلى القول: إنه "لولا الدعوة إلى مقاومة الاستعمار باسم الإيمان والجهاد في سبيل الله والوطن لكان في الإمكان ذوبان السكان المحليين- المتخلفين- في مجتمع الأوروبيين- المتقدمين-"[15].

إن المجموعة القليلة التي هيئت للثورة وأعدت لها كانت تدرك قوله تعالى: «...كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الْصَّبِرِينَ»[16]، وقوله تعالى: «إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي الْتَّوْرَاةِ وَ الإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوْا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»[17]، وقوله: «وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ»[18]، أي أنه طلب من المؤمنين أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم في الجهاد في سبيل الله ليثيبهم الجنة.

ومن هنا وجد الجهاد تطبيقا له في الميدان، كما أن المبدأ القائل: "ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا"[19] رفع من معنويات المجاهدين ودفع بالشباب الغيور على دينه ووطنه إلى الانخراط في صفوف جيش التحرير الوطني بعد أن عرف أن الإسلام هو الذي يردُّ له الاعتبار، وينتشله من الذل الذي أصابه.

وهكذا أصبح العامل الديني أحد أهم العناصر في إنجاح ثورة 01 نوفمبر 1954م التي أعلن بيانها صراحة بأن هدفه هو الاستقلال الوطني بواسطة:

1- إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية.

2- احترام جميع الحريات الأساسية بدون تمييز عرقي أو ديني[20].

يستشف من العبارة الأولى الرجوع إلى الإسلام كجزء من هويتنا، وبهذا الشكل تكون الثورة قد ربطت بين البعد الديني والوطني أي بين الجهاد في سبيل الله وفي سبيل تحرير الوطن، أما العبارة الثانية ففيها ما يدل على روح التسامح والتعايش السلمي بين الديانات وهي ترجمة لقوله تعالى: «لاَ إِكْرَاهَ فِي الْدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الْرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»[21]، وقوله تعالى: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ»[22]؛ والملاحظ أن أعمال العنف الثوري وأعمال التخريب لم تمس بالمقدسات الدينية للمستعمر (الكنائس، الأديرة، المعابد، المقابر...) إيمانا بإمكانية تعايش الأديان.

وضمن البيان النوفمبري في البند الثاني من الأهداف الخارجية عبارة الإسلام "تحقيق وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها العربي الإسلامي"[23]. كما أن ورود عبارة التاريخ والجغرافية والدين

والعادات ضمن العنصر الأول من فقرة "وسائل الكفاح" كلها دليل على رغبة محرري البيان في استغلال العامل الديني وتوظيفه أحسن توظيف على الصعيد الداخلي والخارجي.

وللعلم فقد تكررت عبارة "الإسلام" ثلاث مرات في النص النوفمبري وعبارة "الدين" مرتين اثنتين.

بإعلانهم عن اتجاههم الإسلامي والعربي فإن الثوار قد ضمنوا ورسخوا في نفوس الشعب الجزائري مبدأ الوحدة الوطنية والسياسية، وكسبوا ثقة الشعب الجزائري الذي كانت رغبته أشد في الرجوع إلى الأصل، واستعادة أحيائه للتراث الوطني الديني واللغوي والتاريخي؛ أما خارجيا فقد كسبوا تأييد وتعاطف الشعوب العربية والإسلامية معهم ماديا ومعنويا.

إلاّ أنه ينبغي أن لا يُفهم أن المجاهدين كانوا متعصبين للدين الإسلامي، فدين الإسلام هو دين غالبية الشعب الجزائري، ولا أحد يشك في أن الإسلام في الجزائر يمارس كعقيدة وكحضارة، كما ظلّ الإسلام أساس الوحدة الوطنية، والمحرك الرئيسي للمقاومة وللثورات التي خاضها الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، كما أشير إليه من قبل، ولم يحارب الجزائريون الفرنسيين لكونهم نصارى وإنما لاعتبارهم مستعمرين معتدين، ممتثلين في ذلك لقوله تعالى: «وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ»[24]، وهكذا شعر الثوار بأنهم مجاهدين في سبيل الحق ضد الباطل، وبأنهم في الاتجاه السليم على قدم المجاهدين الأوائل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأنهم على عقيدة ومنهاج الفاتحين من أمثال خالد بن الوليد وعقبة بن نافع وطارق بن زياد، فبرهنوا بالفعل عن فعالية مدهشة، بخاصة وهم يتذكرون التوسع الهائل الذي حققه المحاربون العرب بحيث شمل البحر المتوسط حتى إسبانيا وجنوب فرنسا، وبلغ فارس والهند شرقا خلال مدة لا تتجاوز عشرات السنين[25]، ولعل هذه الانتصارات تعود إلى إيمانهم بقضيتهم.

وقد أعطت فكرة "الجهاد" وصيحة "الله أكبر" والرغبة في الاستشهاد الكفاح المسلح في الجزائر بعدا ثوريا حقيقيا تأكّد معه التواصل بين حلقات الكفاح التي خاضها جيل الماضي وواصلها جيل الثورة، كما أن سلوك المجاهدين وفق الشرع الإسلامي أكسبهم ثقة الشعب وتعاطفه معهم، فأصبحوا يتمتعون بالمهابة والاحترام، والتأييد والطاعة، ويظهر ذلك في: افتتاح المجاهدين لجلساتهم بالبسملة والحمد لله ثم باسم جبهة وجيش التحرير الوطني، واختتامها بسورة «العصر»، وأدائهم للشعائر الدينية، وفي مقدمتها الصلوات الخمس، كما أن محاكم جيش التحرير الوطني كانت تستمد أحكامها

القضائية من مصادر الشريعة الإسلامية والعرف السائد الموجود، ومن ذلك تنفيذ حكم الإعدام فيمن يمس بشرف المجاهد كالاعتداء على حرمة امرأة، ومن الأمثلة على ذلك تنفيذ حكم الإعدام في حق الرائد "أزدات" عضو مجلس الولاية الثالثة بتهمة ارتكاب علاقات جنسية غير شرعية مع مجاهدة، وتنفيذ حكم الإعدام في حق شيهاني بشير قائد المنطقة الثالثة بولاية الأوراس النمامشة بتهمة اللواط[26].

وأغدقوا من مال الثورة على طلبة العلم والقرآن ومعلمي الكتاتيب القرآنية لاسيما في الأرياف؛ وأمنوا النفقة لأرامل الشهداء وعائلات المجاهدين وأسرى الحرب، وحذروا الشعب من تعاطي التدخين وشرب الخمر[27].

ولما أنشأت جبهة التحرير الوطني المجالس البلدية اشترطت في أعضائها التحلي بالأخلاق الإسلامية، والتشبع بالروح الوطنية، وأن يكون الإخلاص رائدهم، مع الحرص على إحراز ثقة الشعب وتقوية الروابط فيما بينهم، متجاوزين الحزازات القديمة والأغراض الشخصية التي من طبيعتها زرع روح الانشقاق بين أفراد الشعب وطبقاته.

كما كان الملتحقون بالثورة يلزمون بالقَسَم على المصحف الشريف بعدم الخيانة، والإخلاص والوفاء للوطن.

وحتى كلمات السر المتداولة بين الثوار كانت جميعها عبارة عن ألفاظ وشعارات مستمدة من التاريخ الإسلامي كـ"الدين والعدل"، "الحق والباطل"، "الدنيا والآخرة"، "الجهاد والإخلاص"، "السيف والقلم" و"الحرب والنصر".

وأثناء المعركة كان يسمع تشهدهم وهم يقاتلون، وبمثل هذه السلوكات يكون الثوار الجزائريون قد صبغوا الحرب التحريرية بالصبغة الدينية والغيرة الوطنية، واستحقوا ولاء الشعب الجزائري ومساندته لهم، وهي كافية لدحض أقوال المجازفين والذين يريدون عبثا طمس الصفة الجهادية للثوار الجزائريين (على الأقل خلال المرحلة الممتدة من 1954/11/01 إلى يوم 1962/03/19م)، ومهما يكن من أمر فهم بشر يصيبون ويخطئون ومن أخطأ منهم فخطؤه يترتب عليه وحده.

ولدينا من الشواهد التاريخية المتوفرة ما يبرهن أن مقاتلي جيش التحرير الوطني كانوا يطلبون إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر شأنهم في ذلك شأن المجاهدين المسلمين الأوائل، وهذا ما يفسر الجهود الكبيرة التي بذلت من أجل النصر (مليون ونصف مليون من الشهداء).

وهكذا مكنت العناية بالجانب الروحي المجاهدين من إحداث تغييرات جذرية في المفاهيم والسلوكات لدى المجتمع الجزائري بأكمله.

علاقة الجهاد بالعنف الثوري: انطلاقا من قوله تعالى «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا استطَعْتُمْ مِنْ قُوَةٍ ومِنْ رِبَاطِ الخيل تُرهِبونَ بِهِ عَدُوَ الله وَعَدُوّكم»[28]، وقوله تعالى «فَمَن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» «واتقوا الله واعْلَمُوا أَنَ الله مَعَ المُتقين»[29]. ومن المبدأ القائل «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة» عمد الثوار الجزائريون إلى الرد على فرنسا والمتعاملين معها بالمثل مستخدمين العنف المضاد كأسلوب وكوسيلة فعالة.

وإن كانت مواثيق الثورة الجزائرية ونصوصها تؤكد بأن الثورة الجزائرية ليست حربا أهلية ولا حربا دينية[30] وإنها لا تميز نفسها عن مختلف الطوائف الدينية التي تسكن البلاد الجزائرية، ولكنها تميز فقط أنصار الحرية والعدل والكرامة الإنسانية من جهة أخرى... وليس أدل على هذا من إنزال العقاب الشديد بالخونة من رجال الدين في حرم المساجد[31].

وعليه مارس الثوار الجزائريون أسلوبا انتقاميا عنيفا ضد خصوم الثورة الجزائرية وأعدائها من رجال الدين الجزائريين، وهكذا استهدفت الثورة شيوخ الطرق والزوايا الذين لم ينساقوا لنظامها، «معي أو ضدي».

وهذا لا يمنعنا من الإقرار أن الزوايا قد سبق لها وأن لعبت دورا هاما على صعيد المقاومة، وأيضا على الصعيد الاجتماعي والتربوي والديني والسياسي، وحافظت على العادات والتقاليد، إلا أن بعض رجالها، تحولوا مع الزمن إلى رجال أوفياء لفرنسا، وفي خدمتها؛ ولهذا نص منهاج الصومام (1956/08/20) على وجوب الحقد الشديد على الاستعمار الفرنسي وإدارته، وجيشه وشرطته والخونة المساعدين له[32] وعليه دفع الكثير من رجال الدين بأرواحهم ثمنا لوفائهم وتأييدهم لفرنسا.

فعلى سبيل المثال، فإنه قد تم لجبهة التحرير الوطني أن نفذت حكم الإعدام في حق واحد وعشرين شخصا بين شيخ زاوية، ومقدم، ومريد، وقريب من الشيخ، فيما بين شهري أوت 1955 ونوفمبر 1956 في إقليم الجزائر الوسطى لوحدها[33].

ومع أن «الطُّلْبَةُ» حملة القرآن الكريم قد شكلوا الكوادر للانتفاضات[34] إلا أن الكثير منهم قد اعدموا من قبل جبهة التحرير الوطني، بسبب تعاونهم مع الاستعمار[35]، وذلك حتى يكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه التعامل مع العدو ضد أبناء شعبه.

والمجاهدون ما زال الكثير منهم على قيد الحياة فلكم أن تسألوهم عن أقوالهم وأفعالهم ومعاملاتهم مع بعضهم ومع أفراد الشعب ولاسيما سكان الريف الذين كانوا يستقبلونهم على أساس مجاهدين ومحررين، وطوبى لمن استضاف مجاهدا.

وإن كان البعض يرى في وسيلة اغتيال المتعاملين مع الاستعمار من رجال الدين المسلمين عقوبة أشد قساوة أفقدت المجاهدين الجزائريين إنسانيتهم، فعلى العكس من ذلك يرى البعض الآخر أنها وسيلة أذكى وأنجح أوحت بفعالية الثورة وبصلابتها وعدم رأفتها بالمستعمرين وبالموالين لهم أكسبت المجاهدين هيبة ورهبة، كما أنها تفسر بوضوح منهجية العمل الانتقامي للمجاهدين.

وسائل جبهة التحرير الوطني في إثارة الشعور الديني لإشاعة الحقد على المستوطنين الأوروبيين والخونة.

كثيرة هي النماذج التي تساعدنا على فهم تكتيك جبهة التحرير الوطني واستراتيجيتها في استغلال العامل الديني في التعبئة الشعبية، ومنها:

1-نشر إشاعات مفادها أن أبناء الجزائر المسلمين لا يقبلون في الوظائف المهنية ما لم يطلق عليهم اسم محمد أو عائشة، كما ورد ضمن مقال نشرته جريدة «Echo d'Oran» التي وصفتها سلطات الاحتلال بالجريدة المسمومة «l'inodore Echo d'Oran» وذلك بتاريخ 1959/11/03[36].

2- الكتابة على شواهد قبور الشهداء عبارة «mort pour la patrie»[37].

3- منع تعاطي الخمور والتدخين أو بيعهما.

4- توزيع مناشير تدعوا الجزائريين إلى غلق المحلات التجارية أيام الجمعة ببشار[38].

5- الدعوة إلى الانتفاضة بمناسبة ليلة المولد النبوي الشريف بغرداية يوم 1955/10/28 [39].

6-اعتبار الاشتراك المالي والدعم المادي للثورة فرض عين، وواجب كل مسلم جزائري تجاه إخوانه المجاهدين، وهذا ما لمسناه في رسائل موجهة من جبهة التحرير الوطني إلى أشخاص معينين من بينهم على سبيل المثال: المدعو بن صالح بلخضر من مواطني بسكرة[40]، والمدعو بلعابد بومدين رئيس بلدية المويلح ونائب وهران؛ والمدعو بلعابد سليمان نائب تلمسان[41].

7- تأطير الجبهة للمدارس القرآنية والكتاتيب؛ ومن ذلك على سبيل المثال بمدينة وهران:

- مدرسة حي الميناء القديم التي كان يديرها محمد بلعربي، وعدد طلابها 25 طالبا.

– مدرستان بـــ «البلاتو»، الأولى يشرف عليها تامي الهاشمي ولد محمد، والثانية محمد بن أحمد بـــ 15 طالبا.

– مدرسة بشارع الغرب، يدير شؤونها سي بوعزة بن عبد الرحمان، وعدد طلابها 30 طالبا.

– مدرسة بحي «Ronchauds» بـــ 15 طالبا، ويشرف عليها هبري أحمد ولد محمد[42].

خاتمة: يتأكد من خلال ربط الثوار الجزائريين لإيديولوجية جبهة التحرير الوطني بأصالة الشعب الجزائري، وبالعقيدة الدينية الإسلامية أنهم منحوا الثورة التحريرية الجزائرية شكلها التضامني، وبعدها الوطني، بحيث وجدوا استجابة طوعية وتجاوبا لدى الجماهير الشعبية الجزائرية.

كما يتأكد من خلال الممارسات الميدانية للشعائر الدينية أن قادة الثورة كانوا عباقرة ملهمين، قد استطاعوا فعلا السيطرة على قلوب جنودهم.

وأن التزام القاعدة الثورية بمبدأ الجهاد في سبيل الله والوطن هو الذي دعم سلطتهم، واكسبهم الشرعية، ومن ثمة ثقة الجمهور الجزائري المسلم، ومحبته لهم، فوفروا لهم ذلك أجيالا صلبة من المجاهدين.

كما أنه من خلال هذه النظرة الخاطفة والدراسة المتواضعة يمكن استخلاص جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

* أن الثورة الجزائرية هي حرب دنيوية أصبغت عليها صفة القداسة حيث جعلت من صراعها مع فرنسا شيئا مقدسا يستوجب التضحية الشاملة – بالدماء والأرواح وبأقصى ما يملكه الشخص، وهذا هو الشكل الحديث للحرب المقدسة–.

* إن الجهاد المفروض على المكافحين الجزائريين فرض عليهم التمسك بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة والإيثار والصبر على الشدائد والثبات عند مواجهة العدو، وطاعة القادة والامتثال لأوامرهم، وغرس في نفوسهم فكرة التكافل الاجتماعي والتعاطف.

* إن عدد شهداء ثورة أول نوفمبر 1954 يؤكد بشكل قطعي فرضية إقدام المجاهدين الجزائريين على الاستشهاد طلبا للجنة، وهذا ما يفسر بأن امتزاج الثورة بالدين قد أوجد وعيا وإدراكا لديهم، وإحساسا بالمسؤولية تجاه الوطن الذي تضاهي قدسية الدفاع عنه قدسية الدفاع عن الدين.

* إن الثورة الجزائرية كانت ذات عقيدة إسلامية، وذات مصدر إسلامي باعتمادها على قاعدة الجهاد وسيلة والحرب الثورية أسلوبا.

الهوامش:

1- وزارة الإعلام والثقافة، النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني (1954-1962) الجزائر: 1979، ص .35

2- الثورة عملية تاريخية، ويمكن تسمية كل عصر «بالعصر الثوري». والتاريخ تحكمه ثنائية الصراع ويتصف بالتغير والتطور والتكيف؛ فالعالم الآن غير ما كان عليه، وغير ما سيكون.

3- الشرعية الثورية (La légitimité révolutionnaire): هي حق الثورة في اتخاذ ما تراه-مناسبا- من إجراءات لتحقيق الأهداف التي نشبت الثورة من أجل تحقيقها، وهي حتما تكون خارج إطار القوانين القائمة، باعتبار أن الثورة تكون أصلا لتغيير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة والتي تحميها القوانين المنفذة قبل قيام الثورة، وبعض هذه الإجراءات يكون مجرد استثناءات تفرضها ضرورات الأمن لنجاح الثورة، وتكون مؤقتة إلى حين توضع القوانين الجديدة التي تحمي برامج الثورة. فالثورة تلجأ إلى الإجراءات الاستثنائية فقط حتى يتم تحويل مبادئها وبرامجها إلى قوانين ونظم. ومعيار الأمان فيما تتخذه الثورة من إجراءات تحت شعار الشرعية الثورية هو وضوح الأهداف وتحديد البرامج، وقبل ذلك أصالة الثورة بحيث تكون الإجراءات لصالح الأغلبية الساحقة من الجماهير، وليست لحماية أفراد أو مجموعة أو فئة. (عبد الوهاب الكيالي. موسوعة السياسة، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسة والنشر، 1999، ص ص 453-454).

4- سورة البقرة، الآية: .214

5- سورة آل عمران، الآية: .142

6- الفخر الرازي. التفسير الكبير، الجزء السادس، الطبعة الثالثة. بيروت: دار إحياء التراث العربي (د.ت)، ص .19

7- الجهاد: من الجَهد وهو التعب والمشقة أو من الجُهد وهو الطاقة، وهو في الاصطلاح قتال الكفار لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله؛ وهو بذل الجُهد بالقتال والصمود للمحن والشدائد ورد العدوان. ينظر:

- محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، باتنة: دار الشهاب (د.ت)، ص ص 169-173.

- القسطلاني. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المجلد الخامس، بيروت: دار الكتاب العربي، 1403هـ/1973م، ص 31.

-El-Moudjahid- Organe Central du F.L.N, N° 1 à 29, imprimé en Yougoslavie, Juin 1962, pp, 08-09.

يراجع أيضا: قانون المجاهد والشهيد، رقم91/16، المتحف الوطني للمجاهد1994 ص ص11-15.

8- أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية: 1900-1930، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، الجزائر: ش.و.ن.ت 1983، ص .41

9- مصطفى الأشرف. الجزائر: الأمة والمجتمع، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر:1983، ص .08

10- مثلا: حرية المسجد: البركة المكانية خلافا للأمكنة الأخرى؛ البركة الزمانية الصلوات الخمس، الجمعة، التراويح، الأعياد؛ فالمسجد هو جهاز إنذار مبكر يجمع الناس للصلاة وسماع الدروس ومن ذلك الدعوة للجهاد.

11- عبد المجيد عمراني. النخبة الفرنسية المثقفة والثورة الجزائرية 1954-1962، باتنة: دار الشهاب، (د.ت) ص .56

12- «يعد مجاهدا كل شخص شارك في حرب التحرير الوطني مشاركة فعلية مستمرة بدون انقطاع، تحت لواء جبهة التحرير الوطني، وضمن مختلف هياكلها خلال الفترة ما بين أول نوفمبر سنة 1954، إلى 19 مارس 1962م» (من قانون المجاهد والشهيد رقم 16/91 منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1994، ص11).

13- يوسف يعلاوي «الجانب الروحي لثورة فاتح نوفمبر» الأصالة عدد خاص، الذكرى العشرون لاندلاع الثورة الجزائرية 1374-1394هـ/1954-1974، السنة: 03 العدد22 رمضان، ذو القعدة، ذو الحجة 1394هـ/ أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1974م، ص 83.

14- مدرسون في المعهد الفرنسي لعلم الحرب. الحروب والحضارات، ترجمة أحمد عبد الكريم، المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني، أبريل: 1984، ص .216

15- عمار بوحوش.«خصائص الثورة الجزائرية مقارنة بالثورات الكبرى في القرن العشرين»، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 08، السنة 94/93، ص .110

16- سورة البقرة. آية .249

17- سورة التوبة. آية .112

18- سورة آل عمران. آية 169-.170

19- يوسف يعلاوي. المرجع السابق، ص 83.

20- نداء أول نوفمبر .1954

21- سورة البقرة. آية: .256

22- سورة الكافرون. الآية: .06

23- بيان أول نوفمبر .1954

24- سورة البقرة. آية: 190-191.

25- مدرسون في المعهد الفرنسي لعلم الحرب. الحروب والحضارات، ترجمة أحمد عبد الكريم، مارس 1984، ص 216.

26-Mohamed Harbi. Le. F.L.N. Mirage et réalité (1954-1962). Alger: E.N.A.L, 1993, pp. 391-392.

27-C.A.O.M. Carton 1K / 876 (tract du F.L.N. – Mai 1957).

28- سورة الأنفال. الآية: 60.

29- سورة البقرة. الآية: .194

30- وزارة الإعـــلام والثقافـــة الجزائريـــة، النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني (1954-1962). الجزائر: 1979. ص 43.

31- نفسه، ص .50

32- نفسه، ص 35.

33-C.A.O.M- Carton 1K / 876. (liste des chefs de zaouias assassines par le F.L.N).

34- عبد القادر جغلول. الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون، الطبعة الأولى، بيروت: دار الحداثة، 1984، ص11.

35-C.A.O.M. Carton, // 11.

36-A.N.O.M. Carton //726 (activités des mouvements dits nationaux)

37-A.N.O.M. Carton // 727 (bulletin quotidien des renseignements: Oran le 13/11/1959)

38-A.N.O.M. Carton 22H/91

39-Ibid.

40-Ibid. (secret: Biskra le 29/09/1955)

41-A.N.O.M. Carton // 727 (bulletin quotidien des renseignements: Oran le 29/09/1959

42-Ibid Oran le 15/10/1959.